◆ أثر الأندلس فى الحركة العلمية بمصر

حفظت مصر الثقافة العربية بعد سقوط بغداد ، إذ كان النصر السياسى الذى اكتسبه المماليك بعد موقعة عين جالوت مدعاة إلى هجرة كثير من العلماء من شتى الأماكن – شرقية وغربية – إلى القاهرة ، لأن قيام الخلافة العباسية بها – ولو على وجه صورى – قد جعلها تأخذ مكان عاصمة الرشيد ، فيهرع إليها الناس من كل حدب ، وقد وجد العلماء من رعاية السلاطين ما بعث فيهم الرضا والحمد ، ففى كل مسجد ، ولكل مسجد أوقاف وأحباس ، وله مدرسون وطُلاَّب وكتب وأوراق ، وكتب التاريخ تحصى هذه المساجد ذات الصبغة العلمية والدينية معًا ، وتفيض فى ذكر من يدرسون العلم بها على اختلاف فروعه، من فقه، وتفسير، وحديث ، ونحو ، وصرف ، وبلاغة ، وأصول ، وقراءات، ومنطق ... كما تتحدث عن مشاهير العلماء من أئمة القول فى الدين واللغة ، ومنهم : الغزنوى ، والصقلى ، والمصرى ، والمدنى ، والعراقى ، والآمدى ، والإربلى ، والمقدسى ، والشامى ، والخراسانى ، والمغربى ، والطوسى ، والنابلسى ، تعرفهم بأسمائهم كما تعرفهم بلهجاتهم وطباعهم ، إلا أنهم فى نظر الحكومة المصرية إذ ذاك علماء مسلمون ، يؤدون أشرف واجب فى أطهر مكان ، لهم واجب الرعاية والإجلال ، وبهم تزدهر المعرفة ويستنير الطلاب .

وقد كانت الأندلس أحد هذه الجداول التى تصب فى محيط القاهرة ، إذ كانت الرحلة من المغرب إلى المشرق لا تكاد تنقطع ، وفى الراحلين من يرتشف ويرجع ، ومنهم من يؤثر البقاء حيث يستريح ، وقارىء «نفح الطيب» يقف على كثير من تراجم هؤلاء النازحين ، وهم من الكثرة بحيث يسجلون اعترافًا صارخًا بعلم المشرق وأستاذيته ، ويطول بنا القول لو عرضنا لأشهر مشاهيرهم ، فضلاً عن عامتهم .

ولم تكن الرحلة إلى مصر والإقامة بها مقصورة على عهد السلاطين من المماليك ، بل كانت من يوم أن فُتحت الأندلس ، كما فصلت ذلك فى موضوع «سحر المشرق» ، ولكن العصر المملوكى قد كتب له أن يشهد مغرب الأندلس وما سبقه من إرهاصات منذرة توحى بالكارثة المتوقعة ، فدعا ذلك إلى ضرورة الرحلة وجذب علماء الأندلس إلى مصر ، فلاقوا رحبًا فسيحًا وسهلاً مريحًا ، وجدوا أهلاً بأهل وإخوانًا بإخوان ... ولئن اكتفى بعض هؤلاء بالإقامة فى دمشق دون مصر فقد كانت مؤلفاتهم تطير إلى القاهرة سريعًا لتلقى نصيبها من الرواج ، فهم عنها غير بعيد ، كابن مالك ، ومحيى الدين ، وإذا كانت الثقافة الإسلامية متقاربة متشابهة تأخذ منحى واحدًا فى التأليف والصياغة – وبخاصة فى عصور التقليد والمحاكاة ، إلا ما ندر من أفذاذ أمَاثل يُعدون عدًّا – فقد يصعب علينا أن نبرز تأثير الأندلسيين فى الثقافة المصرية ، إذ إنَّ مؤلفاتهم فى الأعم الأغلب نسخ متشابهة من مؤلفات إخوانهم ، سواء من رحلوا إلى مصر من المشرق أو من رحلوا إليها من المغرب ، ولكننا على الرغم من ذلك كله نلمس تأثير الأندلسيين بارزًا فى فروع خاصة من فروع الثقافة العربية إذ ذاك ، لأن جهدهم كان من الذيوع والاشتهار بحيث يدل على نفسه ، وقد رُزق من الحظوة والإقبال ما جعله بارزًا جهيرًا يشير بتأثيره ، وإذا كان هؤلاء الراحلون الفضلاء قد كتبوا فى كل علم تقريبًا ، فإن من هذه العلوم ما تأثر بتآليفهم تأثرًا واضحًا ، بل منها ما كاد أن يصبح وقفًا على دراساتهم ، هم أهله وأصحابه ، ولا يستغرب القارىء ذلك ، فعلم القراءات مثلاً يكاد يكون أندلسيًّا ، إذا نظرنا إلى الكتب التى سبقت إلى تسجيله ، ثم أفاضت فى شرحه ، وسنبدأ بإيضاح ذلك فنقول :

لئن كانت القراءات سبعًا أو عشرًا مشرقية ، فإن التأليف فيها لم يأخذ سبيلاً علميًّا ممتدًّا على نهج شارح إلا عند الأندلسيين ، وسبب ذلك أن بعض جنود المنصور بن أبى عامر كان مثقفًا ، عالمًا بالقراءات ، ثم ولى إمارة دانية والجزائر الشرقية ، فبذل جهده فى نشر هذا العلم تقربًا إلى الله تعالى ، وإشباعًا لرغبته العلمية ، فنفقت لديه سوق القراءة – كما يقول ابن خلدون فى المقدمة[1] ، وظهر لعهده أفذاذ دَوَّنُوا العلم على نطاق شامل ، بحيث تضاءل جواره ما سبق أن كتب عنه شرقًا وغربًا ، وأبرز هؤلاء الأفذاذ هو الإمام أبو عمر ، وعثمان بن سعيد الدانى صاحب كتاب «التيسير» ، وقد كان شيخ مشايخ المقرئين بالأندلس ، رحل إلى المشرق وتخصص فى العلوم الدينية ، إذ ألف فى الحديث والفقه والتفسير والقراءات ، تاركًا مائة وعشرين مصنفًا – كما يقول مؤرخوه – وأحدها كتاب التيسير فى القراءات السبع ، وقد نشره العلامة «برتزل» أحد أعضاء لجنة النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية سنة ١٩٣٤ ، وصَدَّره بمقدمة جيدة أشار فيها إلى منزلة علم القراءات من العربية والإسلامية ، وهى منزلة عالية تحتاج اليوم إلى تأكيدها ، إذ وقر فى أذهان بعض المثقفين لدينا فى هذا العصر أن هذا العلم وَقْفٌ على بعض المنقطعين لتلاوة القرآن فقط ، وفيهم أُميون حفظوه دون أن يفهموه ، وهذا خطأ واضح ، لأن علم القراءات فى العربية هو علم الإلقاء فى أوربا ، يتحدث عن مخارج الحروف ، ومميزات الأصوات ، ووسائل النطق الصحيح ، ولو قُدِّرَ له أن يأخذ دوره الطبيعى فى التطور لأصبح ذا أثر مهم فى إعداد الخطباء والمذيعين ، بعد أن تُوضع الخصائص المميزة للترتيل والتلاوة فيما يختص بالقرآن ، فلا نشكو اليوم ممن يميلون بالحروف عن مواضعها جاهلين أو متجاهلين ، بل إن الأزهر نفسه – وهو وارث علم القراءات – لا يضعها الموضع المناسب ، إذ جعل قسم القراءات (وهو ملحق بكلية الدراسات العليا) لا يستمد طلابه من حملة الثانوية الأزهرية ، بل ممن يحفظون القرآن من العامة ، وأكثرهم لا يعرف شيئًا ما عن قواعد النحو والتصريف ، وأكبر الظن أنهم يكتفون هناك بحفظ الشاطبية ، مع الإشارة إلى بعض رموزها . أما الأستاذ برتزل المستشرق الألمانى فيرى لعلم القراءات من الخطر ما وضحه بقوله فى مقدمة الكتاب (بتصرف) :

---

(١) المقدمة ، ص ٤٣٧ .

«إن البحث فى مخارج الحروف والاهتمام بضبطها على وجهها الصحيح لتتيسر تلاوة القرآن على أفصح وجه وأبينه ، كان من أبلغ العوامل فى عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفصحى وأسرارها ، وكان ثمرة هذا الاجتهاد أن القراء تشربوا مزايا اللغة العربية وقواعدها ، ودقائقها ، ومما يؤيد ذلك أن الكثير من قدماء النحويين كانوا مبرزين فى علم القراءة ، كما كان الكثيرون من أئمة القراء - كأبى عمرو والكسائى - بارعين فى علم النحو ، فعلى كل من يتصدى للنظر فى تاريخ اللغة العربية ودرس المسائل التى تتناولها كتب النحويين واللغويين والمفسرين أن يتتبع علم القراءة والتجويد ، ومن شرع فى درس معانى القرآن واستقصاء لَطَائِفِهِ واستخراج حقائقه ثم اعتمد على القراءة الوحيدة التى يجدها أمامه ، دون التفات إلى غيرها ، فقد أغفل أمرًا ذا بال» .

أصبحت الأندلس إذن مركزًا أساسيًّا لدراسة القراءات فى ديار الإسلام ، ونشأ من أبنائها من سبقوا إلى التأليف فيها عن دراية وإحكام ، حتى نبغ القاسم بن فِيُّرة بن خلف الشاطبى ، وكان كفيفًا منذ مولده ، فانصرف إلى دراسة القراءات مع غيرها من علوم النحو واللغة والأدب ، وكان قوى الحافظة لدرجة تُستغرب ، بحيث أصبح يصحح النسخ المكتوبة من الموطأ والبخارى ومسلم إذا تُليت عليه من حِفْظه ، ثم يعقبها بشروح وافية واثقة ، وكان عزيز النفس ، بعيد الهمة ، عُرضت عليه الخطابة بالمسجد الجامع فى بلدته فأنف وتأَبَّى ، لأن الحكام يلزمونه مديح الملوك والرؤساء فى الخطبة الثانية وهم ظَلَمَةٌ ، لا يجوز أن يُذكروا بالخير فى مثل هذا الموقف الجليل ، فأظهر الرغبة فى الحج ، ونزح إلى مصر ، وسمع بالإسكندرية على الحافظ السلفى ، ثم عُين للإقراء فى مدرسة القاضى الفاضل بالقاهرة ، وتصدر لدراسة القراءات والنحو واللغة ، فبلغ شأوًا بعيدًا من العظمة والمهابة ، حتى كان الناس يزدحمون فى حلقته ازدحامًا يصل إلى التشابك والتفاخر ، حرصًا على الدنو من مكانه ، وقد ترك فيما ترك منظومة الشاطبية التى يتناقلها الناس إلى الآن مُكبرين مرددين ، وقد قال عنها ابن خِلِّكَان : لقد أبدع فيها كل الإبداع ، وهى عمدة قراء هذا الزمان فى نقلهم ، ولا يشتغل بالقراءات أحد حتى يحفظها .. وقد ظلت كذلك من عهد ابن خلكان إلى وقتنا ، حتى رأينا أكثر قُراء الريف المصرى يحفظونها ،

ويسعون جاهدين إلى من يفك رموزها ، ويوضح مغاليقها ، ومنذ ألف الشاطبى منظومته وهى عمدة التأليف فى هذا الفن ، وقد كُتِبَتْ عليها شروح مستفيضة على توالى العصور، نذكر هنا بعضها لنشير إلى أثر هذا الأندلسى الجهيز فى ازدهار العلم وانتشاره ، فأول من شرحها تلميذه أبو الحسن السخاوى بشرح أسماء «فتح الوصيد فى شرح القصيد» ، ثم أبو شامة المقدسى فى كتابه «إبراز المعانى» ، وبرهان الدين الجعبرى فى مؤلفه «كنز المعانى» ، وشروح أخرى لشهاب الدين بن عبد الدائم الحلبى ، وجلال الدين السيوطى، وشهاب الدين القسطلانى ، ونفر غيرهم لا يحصون ، أشار إلى بعضهم حاجى خليفة فى كشف الظنون .

كما قام باختصارها ابن مالك النحوى فى قصيدته حوز المعانى فى اختصار حرز الأمانى ، وقام بإكمالها أحمد بن على المحلى شيخ القراء بالقاهرة وغيره من المشاهير ، فإذا قلنا إنَّ علم القراءات كاد أن يكون أندلسيًّا ، وأن أثر الشاطبى بمصر فى هذا الفن كان من الخلود والذيوع بالمحل الأول لم نكن مبعدين .

وتذكرنا منظومة الشاطبى بأخت لها فى النحو والصرف نالت شهرتها الذائعة فى بابها ، وهى ألفية ابن مالك الأندلسى ، المسماة بالخلاصة ، فقد كان لها من التأثير العلمى منذ العصر المملوكى إلى هذا الوقت ما لم يتح لمؤلف نحوى آخر ، ولم يكن ابن مالك مجددًا فى علمه ، ولكنه ضابط ومقيد وشارح ، لأن كتاب سيبويه فى النحو لم يجد من أئمة النحاة بعده من يشغل باله بمعارضته ، بل أصبح إمامًا يرجع إليه ، وهاديًا يستنار به ، وقصارى المؤلفين من لدنه أن يلموا بموضوعه أو يشرحوا غوامضه ويفصلوا مجمله ، وقد عُرف باسم (الكتاب) لجلاله ، وكان يقال لمن درسه لقد ركبت البحر استعظامًا وإجلالاً ، وقد رحل ابن مالك من الأندلس إلى دمشق – وهى يومئذٍ تحت سلطنة المماليك – فسمع الحديث بها ، وأخذ العربية عن غير واحد ، واعتمد فى قراءة كتب الأقدمين على نفسه ، وهذا مما عيره به منافسه أبو حيان الأندلسى – نزيل مصر أيضًا ، وصاحب التآليف الذائعة الجهيرة فى النحو والتفسير واللغة والقراءات – وقد ألف ابن مالك كثيرًا ، وعارض الشاطبى بمنظومة فى القراءات قال فيها :

ولا بُـدَّ مِـنْ نَظْمِى قـوافى تحتـــوى لمـا قد حَـوَى «حِـرْز الأمانى» وأزيـدَا

فمن بين مؤلفاته : «الفوائد» ، و«التسهيل» ، و«سبك المنظوم» ، وشرح مقدمة الجزولى ، وشرح المفصل ، وعدة اللاحظ ، والتعريف ، وشواهد التوضيح لمفصلات الجامع الصحيح ، ومن بين منظوماته الكافية الشافية فى ثلاثة آلاف بيت ، ونظم الفوائد ، ونظم لامية الأفعال ، والأعلام فى مثلث الكلام ، أما منظومته الخالدة فهى الخلاصة المعروفة بالألفية ، فقد أذاعت ذكر ابن مالك على مدى الأحقاب ، وخُدمت بالشروح والحواشى والتقريرات ، ولذلك كان تأثيرها العلمى بارزًا بذكر الأندلس . وقد يكون لغير ابن مالك من مؤلفى المتون النحوية نظمًا ونثرًا أفضل منها ، ولكن البحث هنا عن الأثر والتأثير .

والثابت المشاهد أن ألفية ابن مالك تركت دويًّا صاخبًا فى دنيا الشروح والتآليف لم يتركه متن نحوى آخر ، ومن شُرَّاحها : السيوطى ، وابن الناظم ، وابن عقيل ، وابن هشام ، وابن الصائغ ، وأكمل الدين البابرتى ، وناظر الجيش الحلبى ، وعبد الرحيم الأسنوى ، هذا غير الحواشى المستفيضة التى كُتبت على كل شرح ، والتقريرات المهمة التى ألحقت بكل حاشية . وكلها تدور حول ألفية ابن مالك – وقد نُظمت ألفيات أخرى لغير ابن مالك ، ولكن لم تحظ بمنزلتها ، وربما كان لوضوح الخلاصة وسهولة صياغتها أثر فى ذلك ، ولكننا نرى منظومات ابن مالك الأخرى تشاركها هذا الوضوح ، ولم تحظ بمعشار ما حظيت به ، مما يدل على أن الاشتهار حظ مقسوم ، ولئن كان الشاطبى وابن مالك كلاهما محافظ يقلد فى تأليفه ، وناقل صائغ فى نظمه ، فإننا لا نبحث هنا عن الابتكار ، ولكن نشير إلى التأثير ، وقد بلغت مؤلفاتهما التقليدية فى مجال التأثير والسيطرة ما لم تبلغه مؤلفات المجددين من أمثال ابن مضاء . فوجب أن نشير إلى دورهما الكبير فى الثقافة العربية ، فلا نبخس أحدًا فضله فى ميزان التقدير .

ولابد من كلمة فى مجال تفسير القرآن ، عن مؤلف أندلسى مهم ، كان فريدًا فى اتجاهه ، إذ إن التفسيرات الذائعة لعهده وما وليه لم تكن على غراره ، فقد كان هناك مجلدات تفسيرية ، بعضها مطبوع وأكثرها مخطوط لابن العربى ، والعز بن عبد السلام ،

وابن ظفر الصقلى ، وسبط بن الجوزى ، وناصر الدين الجذامى ، وتقى الدين السبكى ، والجلال السيوطى ، والزركشى ، والبلقينى ، وأبى حيان ، وابن قيم الجوزية ، والقفطى ، وابن كثير ، والعليمى ، ولكنها لا تغنى غناء تفسير القرطبى ، إذ كان ذا منحى خاص ، يضيف الأقوال إلى قائليها ، ويضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين ، ويفصل آيات الأحكام تفصيلاً شافيًا ، ويوضحها بمسائل تسفر عن معناها ، وترشد الطالب إلى مقتضاها فى أسلوب سلس لا يصدمك بالإصطلاحات العلمية ، أو التخْريجات النحوية والصرفية ، أو التمحلات البلاغية ، مما يغشى البيان القرآنى بضباب يحول دون اجتلائه ، إشباعًا لرغبة قارىء بَحَّاث . وهو لا ينقل نصًّا ما دون مناقشة ، كاشفًا وجوه القول عَمَّا يجوز للمفسر أن يبديه من الرأى المؤيد بالحجة ، وما لا يجوز أن يتعرض له من الفروض والتأويلات القاصية ، ذاكرًا – ما دعت الحاجة – نصوصًا وافية من أحاديث الرسول ، وأقوال الصحابة ، ومشيخة التابعين ، وأئمة الرأى فى الإسلام ، وقد بدأ تفسيره بأبواب يراها ضرورية تتحدث عن فضائل القرآن ، وكيفية التلاوة ، وما يكره منها ، وما يحرم ، وجمع القرآن وترتيبه ، والقراءات السبع ، ومصحف عثمان . ولعل دار الكتب المصرية لمست الحاجة إليه فى هذا العصر فبدأت بنشره مطبوعًا فى أجزاء قُدّرَ لها أن تبلغ السادسة والعشرين ، وقارئه المعاصر لا يشعر أنه يقرأ فى تفسير سابق كُتب فى عهد بعيد ، ولكنه يجد من مِنْ قُرْبِ التناول ، وإشباع الفكرة ، ويُسر العرض ، وسلامة الاستنتاج ، ووفرة النصوص والشواهد ما يجذبه إلى متابعته . وإذا كان لكل تفسير وجهته العلمية ، فإن ميزة القرطبى الأولى هى اهتمامه بالأحكام الفقهية ، يكشف عن وجهها ، كما تؤخذ صريحة من كتاب الله دون التعصب لمذهب فقهى خاص . كما نقل كثيرًا من آراء ابن عطية الأندلسى ، وهو مفسر خطير ، ضاع تفسيره الكبير ولم تبق منه إلا أجزاء مبتورة فى دار الكتب المصرية ، وقد أثنى عليه أبو حيان وقال عنه إنه أَجَلُّ مَنْ صَنَّفَ فى علم التفسير ، وأفضلُ مَنْ تَعَرَّض فيه للتنقيح والتحرير . فكأنَّ القرطبى قد حفظ لنا من آثاره ما حفظ ابن بسام فى الذخيرة من آراء ابن حيان المؤرخ . وتلك إحدى مزايا النقل الكثير فى عهود الوراقة والمخطوطات . وقد قَدِمَ القرطبى إلى مصر وعاش بالصعيد الأوسط فى منية ابن الخصيب ، دون أن تغره أضواء

العاصمة ، بل انقطع للعبادة والتأليف فى معتزله الهادىء . وإذا كانت الأيام قد حجبت تفسيره كثيرًا عن التداول فإنه الآن – بعد أن طُبع طبعة راقية ممتازة بدار الكتب – قد جاء بدعًا بين قرنائه ، حتى ليعجب القارىء لتأليف مثله فى منهجه الرائع ، واطراده السهل ، واستقصائه المطمئن فى عصر يعج بالاعتراضات اللفظية ، وتزدحم تفسيراته بالقصص الإسرائيلية ، وهو عن هذه وتلك بعيد بعيد .

هذه إشارات موجزة إلى بعض المؤلفات الرنانة ذات التأثير البعيد ، وبجوارها أخوات كثيرات لأئمة الأندلسيين الذين قطنوا المشرق فى شتى فروع الثقافة الإسلامية ، ولكننا لم نُشِرْ إلى أحد منها عامدين ، حيث كانت على نفاستها مماثلة لسائر المصنفات العربية ذيوعًا وتقليدًا ، فلا يجوز أن تندرج فى موضوع يبحث عن المصنفات المؤثرة بطابعها المتميز ، أو بذيوعها المشتهر المتعالم ، وتمثل لها بمؤلفات المرسى السلمى فى التفسير ، وأشهرها ريّ الظمآن فى تفسير القرآن وهو ضخم يزيد على العشرين من الأجزاء ، ومؤلفات أبى حيان الأندلسى المتنوعة فى النحو والتفسير ، وهى من الشهرة بحيث يستغنى عن الإشارة إليها ، وابن القطاع الصقلى فى العروض والأدب والتاريخ ، وابن ظفر الصقلى فى اللغة والنحو والأدب وعلم الكلام ، وأبى بكر الطرطوشى صاحب كتاب الفتن ، وسراج الملوك فى السياسة ، والمختصر فى التفسير ، وحامل لواء السنة فى محاربة المستحدثات من البدع .

ولا نريد أن ننقل هنا من فهارس المكتبات العربية ما يشبعنا فى هذا المجال ، بل نترك ذلك لمن يشغف باستقصاء هذه النفائس ، وهى قيد المتناول .

هذا نمط يسير من القول فى تأثير المقيمين بالشرق من الأندلسيين فى الثقافة العربية ، أما لو أردنا الإلمام بتأثير الأفذاذ من غيرهم – كابن حزم وأضْرابه – فما أظن القلم يستطيع أن يقف عند حد ، وحسبنا الآن أن نذكر للأندلس إسهامها فى إنعاش الحركة العلمية والأدبية على ضفاف النيل زمنًا غير قصير .

★★★